

مِنْ مُلَخَّص عِلْم

شَيّخنا الأُصوليّ سامح بْنُ مُحمّد بْنِ أَحمد

- حفظه الله -

تَفْرِيغُ مُحَاضَرَةِ أَحْذَرْ مَوْتُ القَلْبِ

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول ابن القيم رحمه الله: حقيقة البر و التقوى

و ما بداء بالبر و التقوى و لاكن
قال: حقيقة البر و التقوي، اي ما المقصود من البر و ما المقصود من التقوى
مثلا ما حقيقة الإيمان باليوم الآخر، و لو أننا سألنا الناس هل تؤمنون باليوم الآخر؟
الجواب: نعم نؤمن باليوم الآخر
ولاكن حقيقة الإيمان باليوم الآخر
يقول ابن القيم في مدارج السالكين: "هو صدق التأهب للقاء الله"
إذن عليك التفريق بين الشيء و حقيقته الشيء فالبر و التقوى سيتكلم عنهما
كذلك الموت هل عندك حقيقة؟ الجواب: نعم و انت ستقول نعم
كلنا سنموت و لاكن ما حقيقة هذا ماذا عملت؟
لذا النبي صلى الله عليه و سلم لما سئله أحد الصحابة عن الساعة قال له: وماذا اعددت لها؟
فنقله النبي صلى الله عليه و سلم إلى الحقيقة اذا فرق بين الشيء و بين حقيقة الشيء، فكثير من الناس يؤمنون ولاكن ما هو حقيقته و معناه
لذلك يقول ابن القيم: (و حقيقة الإيمان باليوم الآخر هو صدق التأهب للقاء الله)
هذا هو الأنسان الذي يقوم الليل و يطلب العلم و الذي يتقي الله و لا يعصيه و لا يقع في المخالفات هذا فعلنا يعرف حقيقة الإيمان باليوم الآخر، لأنه صادق في التأهب للقاء الله.
قال ابن القيم: (و لنذكر من هذا مثالا واحداً يستدل به على غيره و هو البر و التقوى فإن حقيقة البر هو الكمال المطلوب من الشيء).

مثلا الصلاة المطلوب فيها انك تكون فيها خاشعاً حق الخشوع هذا هو البر فيها، و في طلب العلم أن تطلب العلم كما ينبغي هذا هو البر في طلب العلم، فكل عبادات المطلوب الكمال في الشيء أي هذا هو البر فيها والمنافع التي فيه والخير كما يدل عليه اشتقاق هذه اللفظة و تصاريفها في الكلام و منه البُر بالضم، لمنافع و خيره بالإضافة إلى سائر الحبوب هذا له منافع كثير و رجل بار و بر و كرام بررة

البر: كلمة جامعة لجميع الخير و الكمال المطلوب من العبد و في مقابلته الإثم.

قال تعالى: (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ).

و في حديث النواس ابن سمعان رضي الله عنه

قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم:(أتيت النبي - صلى الله عليه وسلم - وأنا أريد ألا أدع شيئًا من البر والإثم إلا سألت عنه، فقال لي: ادن يا وابصة فدنوت منه حتى مست ركبتي ركبته، فقال: يا وابصة أخبرك بما جئت تسأل عنه؟ قلت: يا رسول الله! أخبرني قال: جئت تسأل عن البر والإثم، قلت: نعم، فجمع أصابعه الثلاث فجعل ينكت بها في صدري، ويقول: يا وابصة استفت قلبك البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك).

الراوي : وابصة بن معبد الأسدي | المحدث : النووي | المصدر : المجموع

الصفحة أو الرقم: ١٥٠/٩ | خلاصة حكم المحدث : إسناده إسناد البخاري

هنا ملحوظة أن هذا الحديث هو من حديث وابصة ابن معبد و ليس من حديث النواس ابن محصن وقد وهم ابن القيم رحمه الله

في الراوي، فالإثم كلمة جامعة لجميع الشر إذا البر كلمة جامعة

لكل الخير حسنا إذا كانت لكل خير و يدخل التقوى فيها

قال تعالى: (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ).

و لم يقل و تعاونوا على و البر و لا تعاونوا على عدوان

لأن ذكر التقوى الذي هو الخاص بعد ذكر البر الذي هو العام هو
من القاعدة التي تقول: [ذكر الخاص بعد العام إنما هو للأهتمام].
أي لأهميته التقوى
والتقوي: فعل المأمور و ترك المحظور و العدوان
ذكر بعد الإثم الذي هو كلمة جامعة لكل شر لأهميته العدوان أي الطغيان،
قال تعالى: (مَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ).
فيدخل في مسمى البر الإيمان و أجزائه الظاهرة و الباطنة و لا ريب أن التقوى جزء من هذا المعنى
- لاحظ أن ابن القيم يتكلم الى حد الآن في الأصل العام و داخله الأفراد مثلما ذكرنا مثالاً حديث صاحب البطاقة
كما قال: (إن لك عندنا بطاقة واحده فيها كلمة التوحيد لا إله إلا الله محمد رسول الله). لاكن لا إله إلا الله
هل تنجيه فقط بدون عمل لا وإنما هذه الكلمة إذا ذكرت بمفردها فبلازم يدخل فيها الأعمال الصالحة و من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة ليس هذا قول فقط فالإيمان عندنا قول وعمل
إذن كلمة لا إله إلا الله أذا ذكرت بمفردها يدخل فيها باللازم أو تضمنا جميع الأعمال
قال ابن القيم: (فيدخل في مسمى البر الإيمان و أجزائه الظاهرة و الباطنة ولا ريب أن التقوى جزء من هذا المعنى - أي معنى البر- و أكثر ما يعبر عن بر القلب وجود طعم الإيمان فيه و حلاوته و ما يلزم ذلك من طمأنينة وسلامته و إن شراحه و قوته).
سلامته من أي سلامة القلب
كما ذكر ابن تيمية رحمه الله
يقول أبو هريرة [القلب ملك و الجوارح الجنود فإن استقام القلب استقامة الجنود و ان اعوج القلب اعوجت الجنود]
إذا الأصل هو سلامة القلب، فإذا رأيت نفسك ضعيفا في طلب العلم ضعيفا في القراءة ضعيف في الحفظ ضعيف في كذا اعلم أن الجوارح منبثقة من قوة القلب و ضعفه فلو كنت ضعيفا في العلم ضعيفا في العبادة ضعيفا في طاعة الله فعلم أن القلب أصلا ضعيف باللازم "أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ, وَإِذَا فَسَدَتْ

فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ, أَلا وَهِيَ القلب".
إذا القلب هو الملك فالملك هو الذي يسير أمور الدولة و القلب هو الذي يسير أمور الجوارح فلو كنت ضعفت في الطاعة ما أو علم ما أو عبادة ما
يعني ممكن تقرأ صفحة صفحتين ثلاثة مثلاً وتشعر بالكسل والوهن في قلبك هذا الذي يحصل الأن، المجلدات و الكتب يعني لا احد يقرأها، نسأل الله السلامة من مثلاً يقراء لابن تيمية أقل القليل، بل أقل من أقل القليل، عندنا رسائل صغيرة يذهب إلى المكتبة و يسأله كم هذه الرسالة تحتوى على خمسون مئة صفحة ممكن يبقى فيها أسبوع فالهوان و الضعف هذا ينبع من ضعف القلب، فالقلب هو الذي يسير أمور الجوارح، إذا رأيت نفسك مقبل على الشهوات بشراهة مقبل على المعاصي، أعلم بأن قلبك مريض
لذلك قال ابن تيمية: "إذا وقعت امامك معصية فمالت نفسك اليها فعلم بان قلبك مريض". يعني أنت في سيارة ذاهب لعملك مثلاً، فجلست بجنبك فتاة فوجدت نفسك يميل قلبك إليها، فعلم بان قلبك مريض
قال تعالى:(فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ). أذا قلبك ضعيف أحذر لأنه يضعف و يضعف و يضعف، حتى تقع في هذه الهاوية و أما أن وجدت نفسك قوي و لم يتأثر قلبك، فعلم ان القلب قوي
لذلك ابن القيم: عند تفسير آية (إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ).
قال: "القلب السليم هو القلب الخالي من الشهوات و الشبهات و خلو الشهوات إنما بطريق التقوى و خلو الشبهات إنما بطريق العلم".
فبالعلم و التقوى تلقى الله سليم القلب
أما ان لم يكن علم فليس هناك تقوى لان العلم هو الذي يقربك من ربك قال تعالى:(إنما يخشى الله من عباده العلماء) فكلما تعلمت كلما تقربت من ربك و كلما تقربت من ربك كلما خشيته و أحببته و كلما أحببته وخشيته واحببته كنت عن المعصية، ابعد و إلى الطاعة أقرب فيكون قلبك قويا و بقوة القلب، إذا جاءت الفتن لا تأثر فيه لما لأن القلب قوي بالعلم، فإذا جاءت الشهوات تصدها التقوى التي في القلب
فإذا جاءت فتن الشبهات و قال فلا و قال الشيخ فلان و قال فلان كذا والشيخ قال كذا

شبهات كالمطر تنزل على القلب كالصفا لا تؤثر فيه شيء كأنما أتيت بالبحر و ألقيته على الصفا – **حجر أملس** – لا يؤثر فيه ولاكن إن أتيت بكوب فيه ماء و ألقيت على اسفنجة تمتصه

وهذه هي الوصية من شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله للابن القيم و ذكرها في شفاء العليل ..

قال ابن القيم: "ذهبت الى شيخ الاسلام ابن تيمية و كنت اسأله عن مسائل - هذه المسائل لعلها في القدر– فبعد ان اوردت عليه المسائل قال لي وصية والله ما انتفعت بوصية مثلها

قال له ابن تيمية:{ اجعل قلبك كالزجاجة ولا تجعل قلبك كالإسفنجة }" الإسفنجة هو قلب المريض، الذي إذا وضع في أي مكان يمتص هذه الأشياء إن كان في شهوات امتصها و إن كان في شبهات امتصها قلب مريض، و قد يموت فلو أنك أتيت لإسفنجة ووضعتها في ماء وسخ امتصه أو لبن امتصه أو ماء سيمتصه، أنها هذه هي وظيفتها وعملها الامتصاص فإذا وضعت نفسك، كالإسفنجة على النت شبهات تسقط في قلبك لأنه ليس عندك علم ليرد و تلقي نفسك بين شهوات النساء و التبرج و ما الذي جعلك تمضي من هنا و تمكث هنا في هذا المكان الذي به شهوات كل هذا يمتصه قلبك، ومع امتصاص القلب يضعف و ستجد هذا له أثر أن القرآن يتناسى و السنة تتناسى و اذا كنت تحفظ جيدا يذهب عنك، و كان عندك حب العلم الإقبال عليه ولاكن هذا الحب بدأ يقل و كنت تقوم الليل كل يوم و تقوم بالجزء و الجزئيين و تبكي في صلاتك و الأن لا تستطيع قيام الليل وإذا قمت لا تبكي و لا تقوم لصلاة الفجر و لا تحافظ على الصلاة في وقتها ماذا حدث للقلب؟ و قد سبق و قلنا أن الجوارح هي جنود القلب و لذلك هنا مسألة مهمة، أذا أحسست بميل قلبك الى الشهوات فعلم بأن قلبك به بعض من السلامة ولكنه مريض رغم أنه يستطيع ان يقوم و يجلس و لكنه مريض ليس حتى تستطيع أن تأمره أن يزيل شيئا لأنه مريض ولاكن إن قلت أنه حي لأنك أقبلت على الشهوات و لم تجد في نفسك شيئا مثلا تصافح النساء و ممكن أن تنظر إليها و ممكن أن تعانقها و ممكن أن تجالسها ولان تحس بشيء لأن قلبك قد مات و ليس مريض لأن المريض يحس ولاكن قلبك إنما مات أما الاول القوي فقلبه قوى يبتعد فلا يؤثر فيه شيء لأن قلبه قوي بالعلم و التقوى أما الثاني فمات يقبل كل

شيء ولا يحس بشيء و هذا يحتاج إلى عصمة من الله تعالى و يحتاج أن تنفخ الروح في قلبك كما قال تعالى: (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

يقول ابن القيم: "والموت هنا هو موت القلب و النور هنا نور الوحي".

فلو كان أحد في الظلمات لا يرى شيئا فعند موت القلب لا يحس بشيء

لذلك بعض الناس يقولون: أنتم تقولون لا يجوز الاختلاط والا يجوز مصافحة النساء و النظر إليهن، فلما هذا الفكر الشهواني ها نحن ننظر و نصافح و ليس هنالك شيء فقل له ان قلبك مات و انتهى لما؟ لأن المريض فيه بعض الحياة فيتأثر لذلك علميا المرة الأولى التي يدخن أحد ما يكح فإذا كح فعلم أن رأته سليمة و هو يريد ان يميتها ولاكن لم يبقى يدخن يصبح مريض لان الرئة ضاعت و انتهت فمثلا أحد في أيامه الأولى يكح و تتناقص الكحة حتى تذهب كليا لان الرئة أنتهت، ثم تتأتي الأمراض الأخرى كالسرطان و غيره فأنظر هذا كلام علمي وافق الشرع و مثلا بعض الناس يشرب البيبسي و الأطباء ينصحون بعدم الشرب لأن فيها لحم الخنزير و هذا من الأخبار، فقد سألت أناس مختصين لأن حتى تحرم شيء فعليك بالدليل لأنك ستحرم شيئا أحله الله تعالى، فسألت أناس متخصصين فيها فقالوا لي فعلا لان البيبسي يأخذ الكالسيوم الذي في الجسد و يمضيه في الخلاء و من سيشرب في أول مرة سيشعر بالألم في عظامه، فالطبيب يقول لما تشعر بذلك اعلم أن الكلسيوم في جسدك جيد و المشروب يرد أن يضعفه، ولاكن لما تمكث على شربه لا تشعر بشيء اعلم، انك من هنا ذاهب لهشاشة العظام فهذا كلام علمي و شرعي، إذا خذ من هذه المسائل أمور مهمة

جداً انه عند ضعف العباد و عندما ترى مرأة و تغض بصرك بصعوبة اعلم ان قلبك مريض و به ضعف و يحتاج الروجع الى الله، و هنا تكون عقيدة أهل السنة الإيمان يزيد بالطاعة اذا عليك أن تزيد في قراءة القرآن و صلاة النوافل، و زد في طلب العلم و صلي قيام الليل لان قلبك مريض يحتاج ان تقويه فالمريض يحتاج الى الراحة و الاكل الجيد الكامل و غيرها من الأدوية و الوجبات الكاملة حتى يصبح قويا فكذلك طعام القلب طاعة الله

لذلك الناس لماذا تنتحر؟ لأنه وضع قلبه في غير وضعه و القلب غير قادر، فالفطرة للإسلام و الإسلام دين الفطرة كأنك أتيت بطعام يحتاج أن يوضع في الثلاجة و

وضعته في الفرن فكذلك القلب الحي ليس هذا موضع لذلك العبد المؤمن تجده يتألم من المعصية فهو يعصي و يتألم و تأتيه النفس اللوامة و القلب القوى عنده النفس المطمئنة و القلب المريض أدنا مرة متى يموت تأتيه النفس الأمارة بالسوء فهو لماذا ينتحر؟ لأنه استبدل الحسنة بالسيئة واستبدل الطاعة بالمخالفة ضاق صدره و قال تعالى: (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ).

فتجد نفسه في ضيق وغم وألم من المخالفات و يقول متضايق و لا يعرف من أين و مغموم و لا يعرف لماذا؟ هذا من أثر المخالفات و أصابهم غما بغم

و لا يعرف لماذا؟ هذا من أثر المعصية و كل هذه الأمور من هذه المضغة - القلب-

ونجن نعتقد نحن، أن الإيمان يزيد بالطاعة، أذا قويه حتى يكون قويا فلو كان قويا تقويه بالعلم و التقوى اذا تطلب العلم و صار طلب العلم هنا لك أولاً

اذا ابداء بنفسك كما قال الامام أحمد (نية طالب العلم رفع الجهل عن نفسه و عن الآخرين). إذا أنت تريد ان تطلب العلم لتقوي قلبك وعند قوة القلب، إذا أقبلت الفتن لا تهزك بشيء فأنت ثابت ثبوت الجبال الرواسي لا يهمك شيء، و يقال لك الشيخ فلان قال و فلان و فلان اجمعوا و أنت ثابت لما لأن قلبك قوي و تأتي كل هذه الفيضانات على قلبك وينزل كالصفا لذا لو امسكت قارورة و أغلقتها و ألقيتها في المحيط لا تمتص شيء لأنها زجاج، و لو كنت بداخلها ترى كل شيء و لا ينفد اليك شيء و هذا هو القلب القوي فتمر أمامه الفتن يراها و لا يمتصها ثم يفتتها شيئا فشيئا بالعلم الذي معه و تمر أمامه الشهوات و لا يمتصها ثم يفتتها شيئا فشيئا بالتقوى

اذن الأصل هو القلب فلو رأيت نفسك ضعيفا في أي شيء و ضعيفا في الطاعة لا تستطيع حفظ السنة و القرآن لا تستطيع حضور درس اليوم و تحس بخمول لا تستطيع ان تصلي الفجر و لا النوافل و ليس في نفسي فيها شيئا، فذلك من الاصل الذي هو القلب و الجوارح تنبعث منه اذا كانت الجوارح ضعيفة اعلم أن القلب ضعيف وهذه كانت الجوارح قوية فعلم ان القلب قوي، و قوة القلب بالعلم و التقوى و كل هذا يكون بزيادة القلب و نقصانه فالغيمان ينقض و ينقض حتى يتلاشى كما يقول عبد الله ابن المبارك رحمه الله

فإذا رأيت نفسك هكذا فقوها بالطاعة هذا هو الأصل

يقول ابن القيم رحمه الله "و يلزم من ذلك الطمأنينة".

يعني بعد السلامة صار مطمئنا و هكذا هي النفس التي يحبها الله تعالى و يحب النفس اللوامة بالسوء و هاذه النفس كلها مطمئنة و اللوامة تكون من عند القلب تلوم صاحبها تجد العبد المؤمن إذا عصا الله و إذا لم يطلب العلم وإذا لم يقرأ القرآن يتألم النفس اللوامة و ليست هناك ثلاثة نفوس، بل هي نفس واحدة تتقلب بين قوة القلب و ضعفه لذلك قال تعالى:(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ).

ما معنى المطمئنة أي التي تطمئن إلى طاعة الله تعالى مثلا لم يبقى لديه صعوبة في طلب العلم و يحضر الدروس بكل سلاسة و سهولة و في البداية كان يجاهد نفسه، والأن لا يجاهد نفسه و ممكن يقوم الليل بكل سهولة و بدون عناء لأن نفسه صارت نفسة مطمئنة و القلب قوي و لاكن، لما يبدأ يخالف يذهب طلب العلم و يذهب قيام الليل و قراءة القرآن تذهب حلاوتها، و هذا إنذار بأن قلبك يضعف كما في الحديث حذيفة ابن اليمان: (فينام الرجل النومة و تسلب الأمانة من قلبه). يعني ممكن في لية يسلب الإيمان من قلبه و يضيع ثم ينام الرجل النومة و النومة هي الغلفة أي يغفل و يغفل و ممكن ان يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، لأنه صار قلبك منتكسا يرى المعروف منكرا و المنكر معروفا، فضاع كل شيء فحينئذ تعسا لهاذا افهم بأن هذا إنذار من قلبك يقول لك انتبه أنا أمرض منك و صار إلى الحبوط   هل تعلم ما معنى الحبوط؟ الحبوط هو كلمة أتت من العرب و هي مرض يكون في حشيش الأرض يأكله الأنعام فمثلا تأكلها البقر و هي لا تدري فتسمن و تسمن و يظن صاحبها أنها تزداد و في ليلة وضحها ماتت بغير أن يدري هذا هو الحبوط

كما قال تعالى: (إنه من يشرك بالله فقد حبط عمله). بغير أن يدري

و قال تعالى: (لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ). هذه مصيبة و كارثة

لذلك كما يقول أحد السلف:" لو أننا حافظنا على قلوبنا كجيوبنا لفلحنا ". فالذي يقبض معاشه آخر الشهر يظل يستفقد جيبه أي النقود في السيارة و الحافلة و المسجد و السوق حتى يصل الى البيت وكذلك اعمل مثله لكن لقلبك، انظر ان كنت مثل الأمس أو أضعف او أكثر لو وجدت نفسك أقل فهذا إنظار لك لأن مع كثرت الفتن تضعف القلوب فالفتن القوية عليك أن تقوي لها القلب فكلما زادت الفتن زد من العلم و التقوى وإلا ستضيع مع من يضيع و ستضل مع من ضل لذلك

قال تعالى:(وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ). الذي خرجوا إلى المخالفة وخرجوا عن الطاعة، فحذر هذا جيدا

إذا رأيت ضعفا في العلم و في القرآن ما رأيت نفسك تحفظ السنة رأيت العلم ينسى و يضيع و رأيت نفسك تضيع في النوافل و الصلاة وغيره فهذا إنذار للقلب أنه يضعف

و الحمد لله و صلى الله على نبيه و آله و سلم

كتبه: أبو هاجر السلفي الجزائري

فريق تفريغ وتلخيص علم شيخنا الأصولي